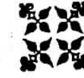
مطبعة مقهوي
الكويت



طبع وتوزيع مكتبة المنار



اسمعي
يا زهرة الصحراء

اسمعي
يـا زهرة الصحراء

الكلمة التى القاها من دار الاذاعة

العالم الكبير

مولانا ابو الحسن علي الحسن الندوي

بمناسبة زيارته للكويت

اسمعي يا زهرة الصحراء

لم يكن يصدق في الزمن القديم ان في الصحاري القاحلة ازهارا ورياحين ولكن من رأى هذه المدينة الزهراء الوليدة التي قفزت من وسط الصحراء ومن بين الرمال الوعساء في عقد من السنين وعلى غفلة من الناس.

تبدو كزهرة جميلة في صحراء وتزهو بانوارها المتنوعة في الليل ومبانيها الانيقة من احدث طراز في النهار صدق ان الصناعة والعلم يحولان الصحراء حديقة والقفر الخالي مدينة . وان في بطن الصحراء كنوزا وطاقات اذا اثيرت واستثمرت في صالح الانسانية وتقدم المدنية صنعت العجائب وحيرت الالباب وعادت بالخير الكثير .

انك يا زهرة الصحراء يا مدينة الكويت من احدث مدن العالم واحدث العواصم العربية سناء ولكنك تمثلين من النبوغ والجد ما لا يثبت حداثة السن وانك تتقدمين الى الشباب والاكتمال بخطى سريعة جريئة فلا يمضي عليك كثير الا وانت من مدن الشرق العربي الكبيرة وتحتلين من بين شقيقاتك المتقدمة في السن المكانة الرفيعة .

ان كثيرا من الناس يردون الفضل في ازدهار الصناعة والتجارة وفي تقدم المدنية والحضارة الى هذا النفط الذي انطويت عليه قرونا وقد خرج حين اراد الله فعاد عليك باليمن والبركة وعلى البلد بالرخاء والثراء . ولكنه ليس مرد الفضل وحده وليس السر الوحيد في تقدمك وازدهارك . فلو فقد النشاط والذكاء وفقد العمل والارادة لما نفع هذا الذهب الاسود او ضاع في امور تافهة لا قيمة لها.

انك يا زهرة الصحراء قد قطعت شوطا واسعا في المدنية العصرية وبرزت كلؤلؤة جميلة في العمارة والحضارة ولكني ارى مع كل اعجاب لهذا التخطيط البديع . ان مهمتك اعظم واوسع من ان تكوني مدينة من اجمل مدن الشرق . فليس ذلك بميزة كبرى تعتزين بها . وليس ذلك ما يطلبه منك العالم اليوم ويحتاج اليه اشد الاحتياج انك مدينة ذات تاريخ وتراث، قطعة من صميم تلك الجزيرة العربية . التي لم ترأن تضيف يوم نهضتها الى مدن العالم الكثيرة الجميلة في القرن السادس المسيحي ، مدينة جديدة فلم يكن ذلك زيادة تشكر عليها وتذكر في التاريخ انما جادت على الانسانية المعذبة الشقية بمدينة جديدة تقوم على العقيدة والروح والاخلاق

انها اعادت الى الانسانية ما فقدته من قـرون من العـلم الصحيح والايمان القوي والدافع الخير ، ذلك ما اصبحـت بفقده الامم قطعانا من الغنم وعصابات من اللصوص • انها منحت الانسانية رسالة سماوية جديدة• وقوة مقاومة للشر والرذيلة كانت قد فقدت من زمن بعيد • ومنحتا الفرد الصالح القوي الامين الذي يوجه المدنية توجيها صحيحا ويملا كـل فراغ في الحياة والمجتمع • فكان فيما اتحفته اغاثة للانسانية الملهوفة واسعاف للمجتمع العليل وفتح جديد في التـاريخ الاسلامي ، وكان افضل هدية تقدمت بها امة او بلاد الـى العالم في زمن من الازمان •

ان هذه الجزيرة قد انجدت الانسانية ومدت اليها يد المعونة والاحسان ساعة احتضارها وانهيارها يوم اشرفت سفينـة الحضارة — بما فيها م ن كنوز وعلوم وتراث ثمين — علـى الغرق وعتا الموج ودجا الليل وهجم القرصان ، وفقد الدليل واظ لمت الطرق وسقط في يد الربان ، واقرأ ان شئـت (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلـوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النـار فأنقذكم منها) •

ان هذه الجزيرة قد برزت الى العالم بدين جديد متدفـق بالحياة وبجيل جديد متدفق بالحيوية والنشاط ممتلـئ بالحماسة وقوة العمل غني القلب كبير النفس بعيد النظـر عالي الهمة (ابر الناس قلوبا واعمقهم علما واقلهـم تكلفا) قوى الروح • قوى الايمان ، قوى الجسـم • متقشف في الحياة زاهد في المظاهر مستخف بالزخارف متمسك باللبـاب مستهين بالقشور قد شغله الاشفاق على مصير الانسانيـة والشفقة على خلق الله والتألم لظهور الفساد وضيـاع الانسانية عن حسد الاغنياء والملوك ومزاحمتهم في البـذخ والنعيم وشغله هم الاخرة عن التوسع الكثير في المطـاعم والمشارب والتأنق الكبير في الملابس والمساكن ، جمـع بين الحياة البسيطة القانعة وبين المغامرات العظيمة والدولة الكبيرة والفتوح الواسعة فكان جميلا فريدا في التاريخ فـي قوة ايمانه وقوة شخصيته وجمعه بين الاضداد •

لقد كان في عواصم العالم وفي مراكز الحضارة الرومية والفارسية من مظاهر الابهة والترف ما يطمع فيه العربي المنعزل فـي جزيرته وما يتغلب عليه فهمه ويحسد فيه الامراء والاغنياء الذين احتكروه لانفسهم وقد كان هذا ظن الروم والفرس يوم

خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الاسلام ويفتحون العالم وينقذون الامم فاعتقدوا ان العرب انما ضاقت عليهم الجزيرة الفقيرة واجهدهم الجوع وجاء بهم الطمع ولكن العرب اعلنوا انهم يعيشون في سعة من نفوسهم المؤمنة المطمئنة وفي سعة من صحرائهم الفسيحة المترامية الاطراف وفي سعة من حياتهم الطبيعية الراضية وان الضيق هو ما فيه الروم والفرس من حياة مصطنعة وحضارة متكلفة ومدنية عجمية وعادات قاهرة وشهوات طاغية واعراف ظالمة واساليب مفروضة وآداب مخترعة ، فهم في قفص من ذهب مؤصد الابواب ، مؤصد المنافذ لا يدخل فيه من النور والهواء الا ما يعيش به الطائر المدلل ، وانما اخرجتهم الرحمة والرثاء للبؤس الذي تعيش فيه الامم ويعيش فيه الملوك ، والرثاء للجاهلية التي خرجوا منها ولا تزال تتورط فيها الامم فقالوا في ثقة واعتداد وفي عزة نفس وايمان (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الاديان الى عدل الاسلام).

لقد كانت الحضارة الرومية والفارسية التي بلغت اوجها وزهوها في القرن السادس المسيحي ومن اساليب عيشهم كثير مما تحرص على تقليده الامم المتخلفة في المدنية وكان للعرب — وهم من اقدر الناس على الاقتباس — ان يستوردوا هذه المدنية برمتها وينقلوها الى صحرائهم وحواضرهم وقد تغلبوا على الدولتين وامتلكوا مواردهما ووسائلها . ولكن منعهم من ذلك اعتقادهم ان مركزهم مركز الامامة والسيادة ومركز التوجيه والارشاد وان الروم والفرس امم مريضة مسلولة وسقامها هذه المدنية المترفة والحياة المزورة وقد كانت من اسباب هزيمتها وانكسارها وانهيار هاتين الامبراطوريتين العظيمتين اللتين اقتسمتا العالم المتمدن المعمور فتجنبوا تقليدها في عاداتها و (كمالياتها) وتمسكوا بفروسيتهم العربية والحياة المتقشفة الجليدة ولم يقتبسوا من الروم والفرس واهل الهند الا المفيد الصالح كالصناعات والتجارات وعلوم الحكمة والطب واساليب الحرب وبعض مرافق المدنية فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو احق بها وتجنبوا القشور مهما امكن وظل تقليد (المدنية العجمية) مما يحذر منه قادتهم وعلماؤهم .

لقد اعتقد العرب ان دورهم في بناء المدنية وتكوينهـــا دور الاعطاء والافاضة ودور التخطيط والتصميم ، ودور الابتكار والاصالة ودور الاستاذية والاشراف • وقد ظلوا يمثلون هذا الدور الى مدة طويلة حتى فقدوا مركزهـــم اخيرا في قيادة الركب الانساني فكان في ذلك شفاء لهم وشقاء للانسانية اعظم وتنزلوا الى التقليد والاعتماد على الغـــير والاستيراد من الخارج وصاروا يعيشون في دائرة ضيقـة من التفكير ومن الواقع وصاروا يفكرون لانفسهم • بعدمـا كانوا يفكرون للعالم كله • واقاموا حولهم سورا من الــدم واللغة والثقافة ، بعدما هدموا الاسوار القديمة واخرجـوا الامم منها تحلق في الفضاء الواسع وتجري في ارض اللــه الواسعة ، واصبحوا يسبحون في برك وانهار بعدما كـانوا يسبحون في بحر لا ساحل له ، فهلمي ايتها الجزيرة الـــى مكانك الاول من القيادة والتوجيه ، والتفكير في الانسانية والاهتمام بشؤونها والجمع بين اسرها ، ورعاية قطعانهـا الضالة ، وهداية البشرية بالرسالة الاسلامية العالميـة ، التي نبعت منك واليك تعود •

لقد شاعت سماحتك العربية واريحيتك المعروفة في التاريخ ان تجودي بالنفط على العالم ، فكنت في ذلك السخية المحسنة المشكورة ، ولا شك انها مساهمة غالية منك في بناء هـــذا الصرح الصناعي الكبير الذي يفتخر به العالم المعاصر ، وقد شهد الجو والبر بقيمة هذا النفط الذي يستخرج من ارضـك ودانت له الطيارات والسيارات بالفضل والشكر ، فشكرا لك ايتها الجزيرة الكريمة العريقة في السماحة والسخاء ، مـن كل من ينتفع بهذه الوسائل وما اكثرهم في العالم ••

ولكن فيك ما هو اغلى من هذا الذهب الاسود وانفـــع للمدنية واعود على الانسانية • بالخير والنفع العام هو الايمان الذي نبع عينه من ارضك لاول مرة بعد قرون متطاولة • فاذا كان هذا النفط تحفة الارض الى الارض كان الايمـــان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم تحفة السماء الـــى الارض وفيك اتصلت السماء بالارض لاخر مرة وقد انقطعت صلة الارض بالسماء والاجسام بالروح والقلب ، والصناعة والحضارة بالايمان والاخلاق ، فلتتصل الارض بالسمـــاء والاجسام بالارواح والقلوب ، والصناعة والحضارة بالايمان والاخلاق مرة ثانية ، عن طريق الجزيرة العربية • وعـــن

طريق الوحي المحمدي • وقد اشتدت حاجة الانسانية الى هذا الاتصال حتى اصبح العالم لهذا الانفصال المشؤوم — بين الاجسام والروح والقلب والصناعة والحضارة والايمان والاخلاق — على شفا حفرة من النار • وعلى وشك الانهيار • •

ان كثيرا من محبيك يتمنون لك شخصية قوية مستقلة في كل ما تقتبسينه من علوم مدنية ، وفي كل ما تبنين من حضارة وصناعة ، وفي كل ما تقومين به من تعليم وتوجيه لجيلك الجديد • وان تفرغي ذلك كله في قالبك العربي الاسلامي • فتخرجي بطراز جديد تتجلى فيه شخصيتك العبقرية وعقيدتك الاسلامية • ونظرتك الخاصة الى الحياة وفهمك الممتاز للمدنية ومهمتك المخلصة في العالم فذلك الطراز هو الذي سيقلده الشرق ، ويمجده الغرب والعالم لم يزل — ولايزال — خاضعا للاستقلال في الفكر والابتكار في البناء ، والاعتماد على الشخصية ، وان قلت الوسائل وضاقت الموارد • فكيف اذا كثرت الوسائل ووسعت الموارد وليكن كل قسم من اقسام مدنيتك وتنظيمك متميزا عن مثله في بلاد لا دين لها ولا رسالة • فانت بلاد — والحمد لله — لها دين ولها رسالة وليجر دمك في عروقك ولا يتجاوزها الا بتناسب بين الاستيراد والتصدير ، فالمدنية والحكومات انها تقوم على هذا التناسب •

وبعد فأنني اعتقد ان الجزيرة العربية كلها • في حساب الانتفاضة الايمانية التي وجدت على بعثة الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم • ودعوته وجهاد اصحابه • وقد اخرجتها هذه البعثة من الجمود والخمول الى النشاط العالمي والعظمة الخالدة والسيادة الروحية ، وهي التي غرست حبها في القلوب والنفوس يسعون اليها على العيون والرؤوس ويأتون من كل فج عميق وهي التي منحتها الكتاب العزيز الذي حفظ لغتها من الضياع والدثور كما ضاعت لغات كثيرة لامم كثيرة وكان سببا مباشرا في تولد هذه العلوم الكثيرة • وتكون هذه المكتبة الواسعة • التي تعتز بها الثقافة الاسلامية العربية ، وهي التي نشرت لغتها في مشارق الارض ومغاربها • وفرضت دراستها والتضلع منها على كل من يحب ان يفقه القرآن ويتفقه في الدين ، ولا تزال الثقافة العربية الاسلامية ، هي الثقافة العالمية التي تتمتع بالتقديس والاحترام الديني والعاطفية القوية • في

رقعة واسعة في العالم ، ولا تزال هذه الهداية مصـــــدر انتفاضة جديدة لمن ارادها وسعى لها سعيها ، وانت مـــن اسرع الناس الى معرفة الفضل وابعدهم عن نكران الجميل وجحود الحقائق ..

لقد تحدثت يا زهرة الصحراء على لسان العالم اخاطـــب الجزيرة العربية واعاتبها واشكو اليها بث الانسانية وحزنها وآلامها وآمالها . ثم نقلت حديث الجزيرة الى العالم معتذرة مجيبة ، منصحة بليغة ، فكان حوارا — بين العالم وجـــزيرة العرب — اصغت اليه الاذان واقبلت عليه القلوب وتحدثت الى مصر فقلت — اسمعي يا مصر — فلم تكن صيحة في واد ونفخة في رماد وتحدثت الى سوريا فقلت (اسمعي يـــا سوريا) ، فوجدت آذانا صاغية وعقولا واعيـــة وهأنذا اتحدث اليك فأقول — اسمعي يازهرة الصحراء — وارجـــو ان احظي منك بكل تشجيع وتقدير وبكل اهتمام وتفكير ..